علاقة النصوص الأدبية بالسياسة في فكر عبد الغفار مكاوي

د. سامية صادق سليمان(*)

مقدمة

للأدب دور سياسي، فهو يساهم في التشكيل الثقافي و صياغة العناصر الجوهرية للدول، وتكوين هويتها الحضارية ٠ وللأدب وظيفة دائمة فهو يحاكي الحقيقة، وهو تعبير بالكلمة عن موقف الأديب من الواقع، ومن المفاهيم السائدة..

ويدرس د.عبدالغفار مكاوي، النصوص الأدبية ويوضح فيها أهم الأفكار السياسية، ومن أهم الأدب الذي درسه: الأدب القديم في التاريخ البابلي، في سعي لتحديد معاني المصطلح وإلقاء الضوء عليه، لأن الأدب أدق صيغة لغوية وأسلوبية تكشف وتعبر عن الخصائص السياسية، والاجتماعية والحضارية للعصر الذي ينتجه، ومن خلال الطرح الأدبي تتضح المشكلات المختلفة التي حلت بالمجتمعات، وأثرت على ثقافاتها.

فكرة الطغيان والاستبداد في الأدب البابلي

يطرح الدكتورعبد الغفار مكاوي مفهوم الاستبداد من خلال دراسته للأدب البابلي، فالأدب يعكس قضايا المجتمع ومشكلاته، والشعوب تتعرض كثيرا للقهر والاستبداد، والأديب دائما نتاج عصره، وهو وسيلة ضرورية ؛ لبعث الروح القومية وتوجيه نظر المجتمع إلى القضايا غير البارزة، ويتحمل الأديب مسؤليته تجاه المجتمع، ويكتب نصه الأدبي، وهو محمل بهموم سياسية، تتضح من خلال مضمون النص...

(*) مدرس الفلسفة بكلية الآداب – جامعة بني سويف.

وقد اتخذ عبد الغفار مكاوي فكرة الاستبداد مدخلًا لدراسة الأدب من منظور سياسي؟ وإبراز الواقع الذي تفرضه السياسة في العصر البابلي..

ويرتبط مفهوم الاستبداد في أذهاننا دائما بالمفهوم السياسي أكثر من أي مفهوم آخر، وهو يعني الانفراد بالسلطة الحاكمة، دون بقية المواطنين.

والاستبداد هو الحكم المطلق الذي تدعمه القوة والمراوغة السياسية من خلال لجوء هذا النوع من الحكم إلى العديد من الممارسات، لعل أبرزها محاربة أصحاب الرأي والفكر الحر، وتعمد تجاهل نشر الثقافة السياسية، بل وتفريغ الثقافة من محتواها وافقار الشعوب، وتسليط الأضواء على قضايا فارغة المحتوى.

ولا يمكننا الوقوف على أسباب الاستبداد إلا من خلال دراسة هذه الظاهره وبحثها من جميع جوانبها واعطائها حقها من البحث العلمي الجاد؛ فعلى الرغم من الكم الهائل من الكتابات والتحليلات والتفسيرات التي خرجت إلى النور حول هذه القضية إلا أن عالمنا لازال غارقا في بحور الطغيان والاستبداد...

ولا يقتصر مفهوم الطغيان على حاكم أو نظام بعينه، إنما يمتد بجبروته في حياتنا، وتفكيرنا، وسلوكنا، وتعليمنا، وإرادتنا إلى العديد من الأنظمة الحاكمة عبر العصور.. وينتج هذا المفهوم ألوانا من التعصب، والتطرف، وادعاء امتلاك الحقائق...

ويهدف أستاذنا الدكتور/ عبد الغفار مكاوي من خلال قراءة نصوص أدب الحكمة البابلية قراءة معاصرة كشف القيم والمعارف المختلفة التي ربما لم تكتشف بعد النصوص الكاملة لما يعرف بأدب الحكمة البابلية.

وكتاب جذور الاستبداد للدكتور عبد الغفار مكاوي هو محاولة لاستعادة التراث وطرح قضية الطاغية، ومأساة هذه الفكرة في تاريخنا القديم والحديث والمعاصر..

ويهدف أيضا إلى النظر في جذور القهروالاستبداد، وفكرة الطاغية التي عانت منها الشعوب في حضارتنا القديمة والحديثة والمعاصرة، والنظر في جذور اللاحرية والقهر، ولا تزال هذه الفكرة مطروحة إلى الآن لكنها لم تأخذ حقها من البحث والدراسة، فمعرفة التراث معرفة دقيقة، ومحاولة استحضاره ضرورة لا مفر منها لمواجهة الاستبداد ومحاصرة الطغيان.

ورأى د.مكاوي أن الفكر والشعر مرتبطان، ويقول فى كتابه: ثورة الشعر الحديث ..أن الشعر، يجعل الناس يشعرون بعظمتهم وتعاستهم، ويجعلهم يسيرون على الأرض كالنيام الذين يحلمون بعالم أبهى وأكمل وأعدل وأفضل عالم ممكن التحقق على هذه الأرض نفسها...

والروح الشاعرة هى الجديرة بأن تجعلنا نتحمل المصاعب، ونتجمل بالصبر، وننتظر فجر الأمل، ونراه يبزغ من بين خبايا الظلام، والشعر وليد ظروفه، يدين لصاحبه بالوجود كما يدين للعصر الذى عاش فيه، وللجو الفكرى والحضارى الذى تنفس هواءه..

إن الشعر، كما يرى مكاوى، تمجيد للتغيير السياسى والاجتماعى، لقد أطلق بعض الشعراء صيحات احتجاج ضد الفساد والظلم، وقد أشار مكاوى أن الشعر يقوم بالنقد والمعارضة والثورة.. والشعر لا ينهض إلا فى جو من الحرية تمكننا من أن نسمع نبض الإنسان الحر..... فطن أستاذنا إلى أننا لم نسيطر بعد على مشكلة الطاغية ومأساة الطغيان في تاريخنا القديم والحديث والمعاصر .. فنحن لم نستطع بعد التمكن من الفكرة، ولم يسلط عليها أضواء البحث العلمي الجاد في كل أبعادها...، فلابد أن يشارك الباحث الناس في مشكلاتهم وتجاربهم ومن هذه التجارب التي تمر بها المجتمعات تجربة الاستبداد المستمرة عبر التاريخ، وهي تعرض الشعوب للطغيان والقهر وما لهذه المشكلة من تبعات، وما يمكن أن يطرح لها من حلول..

وفي الحقيقة أن مشكلة الاستبداد لن تنتهي أبدا، لكن من الممكن تحجيمها عن طريق نشر الوعي، ومقاومة هذا الطغيان، فالإنسان بطبعه يميل أحيانا إلى الهيمنة، وربما تغري السلطة صاحبها في كثير من الأحيان إلى الاتجاه إلى الاستبداد والقهر، والتاريخ خير شاهد على ذلك.. من خلال الأدب البابلي.

الحرية مفهوم:

وضد فكرة الاستبداد نجد فكرة الحرية بارزة في فكر الدكتور عبد الغفار مكاوي فهي بداية البدايات، والقضية الأولى والأخيره عنده، وهي في ظننا ما دفعته إلى العناية بتتبع فكرة الطغيان، ودعوته إلى اهتمام الباحثين بها، فمتي وجد الاستبداد وجدت دائما الدعوة إلى الحرية والتحرر.

وليست المشكلات الخاصة بالحرية إلا انعكاسا لمشكلة السلطة، وكما أن السلطة تعد قيدا للحرية في كثير من الأحيان، فإن الحرية تعد قيدًا على السلطة أيضا..

والحكمة التي يريد الدكتور عبد الغفار مكاوي أن يخرج بها من قراءة نصوص الحكمة البابلية على ضوء الأهوال التي جرت في الماضي والحاضر هي أن تراث الطغيان وما يلازمه من العسف والظلم، والقهر والفقر، واليأس والبؤس ....الخ، أقدم بكثير مما نتخيل عادة، وأن تجاوزه بتراث آخر يبدأ من بداية البدايات، ويقصد بها الحرية، قد بات أمرا لا يحتمل التهاون...

ومن ثم يبحث د مكاوي عن معني آخر يضاد الاستبداد ألا وهو معني الحرية، وهذا المعني هو ما يريد أن يستبدل به معني القهر والاستبداد الذي تأصل في أعماق الشعوب التي عانت منه ..

وفي الكتابات الأدبية عند عبد الغفار مكاوي نجد اهتمامه بالحرية وهي -كما يراها - محور كل إبداع سواء بصورة واضحة جلية أو بصورة رمزية.

ويعرض الدكتور عبد الغفار مكاوي ثلاثة نصوص من الأدب البابلي:

- لامتدحن رب الحكمة.
- المعذب والصديق.
- حوار السيد والعبد.

ويحاول الكاتب أن يفهم هذه النصوص فهما بعيدا عن التسرع في الأحكام والتعسف بفرض الآراء.. لذلك نحاول أن نستشعر روح النص ودلالته ورسالته من داخله مع وضعه في سياقه التاريخي والاجتماعي المحدد وتوخي الدقة والحذر...

لقد تجاهلت الكتب التي وضعت عن تاريخ الفلسفة، الفلسفة الشرقية تماما، وقد اكتفت بعرض بعض الاتجاهات في الفلسفة الهندية والصينية، وإغفال الحكمة عند المصريين، وأرض الرافدين بحجة أنها لا تسمو إلى التفكير المنهجي والبرهاني الذي تميز به اليونان، وحاولوا أن يؤكدوا استقلاله عن الاعتقاد الديني، والخيال الاسطوري والتعبير الشعري والوجداني ...

وبالرغم من هذا التجاهل نجد أن هناك من أنصف الفكر الشرقي القديم، ومنهم على سبيل المثال: إميل بريهيه، فقد رأى أن لا أحد يستطيع الاعتقاد بأن اليونان وروما وشعوب

أوربا في العصور الوسطي والحديثة هم دون سواهم أرباب التفكير الفلسفي، ورأى أن هناك أماكن أخرى سطعت فيها شمس التفكير الفلسفي، وان تفسيره التاريخي يتطلب إعادة وضعه في وسط إنساني واسع النطاق، لان التاريخ الصحيح هو وحده .. التاريخ العالمي .. وعلى ذلك يمكننا القول أن هناك من المؤرخين من انصفوا الفكر الشرقي القديم..

إن دعوة ابتداء الفلسفة عند اليونان هي دعوة فارغة، ولم تكن لتظهر الفلسفة اليونانية للوجود دون أن يستمدوا مواد بنائهم من السابقين ومن المعاصرين لهم ..

ويدخل ضمن تفسير النصوص أيضا ترجمتها من لغة قديمة إلى لغة حديثة، وعملية النقل من أفق إلى أفق آخر، ولاسيما إذا كانت ترجمة مبدعة بقدر الإمكان للنصوص الأدبية والشعرية، تحقق عملية التواصل وتثير العديد من الأسئلة والقضايا بما لا يقل عن فكرة الاندماج التي انتقدها جادامر - فيما يرى دكتور عبد الغفار مكاوي.

ثم يتجه بنا الدكتور عبد الغفار مكاوي إلى الحكمة البابلية التي كتبت قبل ثلاثة آلاف عام على أقل تقدير ..

ويبدأ بشرح كلمة حكمة وأن معناها يختلف من بلاد الرافدين عن معانيها الدينية والأخلاقية، أو في التراث العقلي والمنهجي واليوناني.

والمقصود بكلمة حكمة في الأدب البابلي ..... هو البراعة في طقوس السحر والعبادة، والحكيم .... هو الخبير بالمعارف والشعائر المتصلة بها، فمفهوم الحكمة في النصوص البابلية يتسع لمعاني أخلاقية وتأملات كونية، ومشكلات عقلية تنطوي عليها رؤية الإنسان في حضارة وادي الرافدين للوجود، والإنسان، والمجتمع، وللخير والشر والعدل والمصير.

ويتابع أستاذنا معضلة قراءة النص ولكنه يرى أن غاية ما نريده هو معرفة العالم العقلي الذي نشأت فيه هذه النصوص القديمة، وقراءتها بأكبر قدر ممكن من التفهم والتعاطف لمعايشة التجارب الأصلية، والظروف والأحوال الاجتماعية والنفسية التي دفعت أصحابها إلى تدوين شكواهم، وطرح أفكارهم لانفسهم ولقيم عصرهم، ومحاولة تحسس الجذور الدفينة للظلم والاضطهاد والتسلط التي تدور حولها هذه النصوص ...

وأولى الحضارات العظيمة في أرض الرافدين هي حضارة السومريين، فلقد ساد نظام حياتهم نظام حكم دولة المدينة شبيه رغم الفوارق ببلاد اليونان أخذ عنهم البابليون والأشوريون نظام

الكتابة بالخط المسماري، كما نقلوا كنوزا ثمينة من أدبهم وديانـاتهم وأساطيرهم وتشريعاتهم وأشكالهم الفنية وأجناسهم الأدبية ..

ومعظم الأدب السومري عبارة عن ألواح تم نسخها في عهد الدولة أو السلالة البابلية الأولى، ومن الصعب وضع حواجز وفواصل بين الثقافتين السومرية والبابلية فلقد ثبت تداخلهما وتأثيرهما المتبادل.

لقد كان السومريون والبابليون يعتقدون أن الكون يسكنه صنفان هما: البشر والآلهة.. والمكانة العليا بالطبع للآلهة، والآلهة تتفاوت درجاتهم ومستوياتهم .. وتصور السومريون والبابليون أن الآلهة وحدهم هم الذين كانوا في البدء يسكنون الكون، ثم خلق الإنسان في مرحلة الخلق والتكوين .. وعلى الإنسان أن يؤدي فروض الطاعة والعبادة الإلهية المقدسة، فإن أغضبهم وقع في الذنب وارتكب الخطيئة، والعقاب يتمثل في مرض، أو محنة تصيب المذنب.

ومعاناة الإنسان البابلي تأتي من القهر السائد وغياب المساواة، من خلال استبداد وطغيان الآلهة، الذي لا مبرر له ولا تفسير، وهذه الآلهة، كما يقول النص «لا يمكن أن تفهم/ وطريق الآلهة لا يمكن أن يعرف/ وأي شيء عن الآلهة يستعصي على الكشف».

كان للآلهة دورا في تسيير شؤون الكون لكن هذه الصورة تغيرت في الألف الثاني والألف الأول ق.م، فقد اتخذت الآلهة ملامح إنسانية واضحة وبدأت تتعاون أو تتصارع بالحيلة والمكر التي برع فيها البشر، وبذلك أسقط الإنسان تصوراته وقيمه وقوانينه الأخلاقية على الكون في مجموعة يتجلي هذا في الأدب الملحمي ..

عرض الدكتور عبد الغفار مكاوي لبعض النصوص البابلية والتي كانت في أغلبها لها أهداف سياسية وهي:

لامتدحن رب الحكمة:

وهي قصيدة بابلية شهيرة عبارة عن حديث فردي طويل يروي فيه رجل نبيل بابلي مثقف عن ابتلائه بكل المحن والأمراض، ثم عودته إلى الصحة والثروة، والفكرة التي تقوم عليها الألواح المكتوبة في هذه القصيدة تتكون من عناصرأهمها: تخلي الآلهة عن الراوية، وانقلاب

ذويه ومواطنيه عليه من الملك إلى العبيد، ويوضح الأمراض الجسدية والنفسية التي أصابته، والأحلام التي رأها وحملت إليه الوعد بالشفاء، ثم خلاصه من كل الأوجاع والأمراض.

ويحكي أيضا عن أحد رجال السلطة الحاكمة .. كيف تشائم، وفقد مكانته، وإهانه العبيد، وتنكر له أفراد عائلته، وجردوه من كرامته وممتلكاته، وصادروا أملاكه وحرموه من مناصبه..

واللوح الثاني ... توحي سطوره بأن الآلام التي يقاسيها بفعل قوى خارجة هي المسئولة عن ما أصابه من مرض وبلاء ... ويتجه الكاتب إلى مشكلة المعاناه التي يعانيها الإنسان الصالح، ومعاناته من الاغتراب الميتافزيقي أو الديني وما هي الطريقة التي تعيد ربطه بالمطلق ...

وينتقل الكاتب من الكلام عن وضع الإنسان، وتعرضه لتقلبات الظروف والأحوال، وما قد يقاسية نتيجة لذلك، وأنه لا يملك إلاالتسليم، فلا حيلة له، لأن المرض تمكن منه، ويؤكد عجز الكهنة الذين لجأ إليهم، والآلهة الذين تضرع لهم .. ويلوم على الذين استغلوا سقوطه، ويدين سلوكهم، ويأمل في شفائه وكأنه أيوب يشكو ويصرخ ..

وربما يطرح لنا هذا النص نوعا آخر من الاستبداد، وهو استبداد الظروف التي يعيشها الإنسان عندما تتغير أحواله فيطغى عليه كل شيء، ويتخلى عنه الجميع ...

أما اللوح الثالث، فقد أسهب الكاتب في هذا اللوح بطريقة مملة قللت من المصداقية والعمق الوجداني ... ومع أن البطل المبتلي لا يذكر اسم الإله الأكبر إلا أنه كان على يقين أنه أصل في بلواه، وسببا لها، وأن الذنب في المصائب التي امتحن بها لا يقع في المقام الأول على الملك ورجال البلاط، وأفراد عائلته وعبيده، ولا على الأرواح والشياطين الشريرة، وإنما يقع علي كبير الآلهة ... الحقيقة أن المعذب قد ابتلي ببلاء أيوب وأن مشكلته في صميمها هي مشكلة أيوب، فمردوخ هو الإله الذي ينتظر منه عبيده العدل، وهو نفسه الذي يسمح بأن يعذب أخلص عبيده، ولا يوجد جوابا للسر الغامض الذي يتعالي على الفهم البشري والمفارقة هي: كيف يكون الإله الذي يجرح هو القادر على أن يشفي ..

وهل لا يوجد مخرج من استبداد الآلهة، أو الحكام إلا بهم لا غيرهم.. أنها مفارقة غريبة..

المعذب والصديق:

أما هذا النص، فهو عبارة عن قصيدة، أو حوار شعري بين معذب جني عليه الظلم المستشري في عصره، وصديق عالم متزن يعبر عن التقاليد والسلطة الدينية والأخلاق السائدة، ويحاول أن يبرر الجرائم والتجاوزات التي يسردها المعذب المضطهد .. وذلك على ضوء الأفكار والقيم والمعتقدات الموروثة عن عدالة التنظيم الالهي للعالم، والتنظيم الاجتماعي الذي أقامته الآلهة، وأنزلوه على البشر في صورة مؤسسات وتشريعات مقدسة ...

وأحد المتحاورين هو المثقف الثوري القلق، والأخر يمثل النظام السائد والناطق بلسان هذا النظام، والصراع بينهما لم يوجد له حلا إلى الآن .. وفي النهاية يستسلم الثوري انتظارا للرحمة الإلهية، وهذه القصيدة لها قيمة كبيرة في تعرف رؤية المثقفين القدماء في وادي الرافدين، وتتبع جذور التسلط والظلم في ثقافتنا، التي عرفت صراع الاستبداد والحرية ..

حوار السيد والعبد:

ومضمون هذا النص ... ماذا يفعل الإنسان عندما يجد أن القيم قد فقدت قيمتها بعد أن كانت مؤثرة وحية في عهد الأجداد والأسلاف .. فلا عجب أن يصل اليأس إلى أعماق الإنسان مما يراه من سلب ونهب وقهر..

بعد أن استولى الملل على السيد، وخيم عليه الصمت يتخذ قراره المفاجئ، فيأمر عبده أن يجهز مركبته ويصل إلى القصر، فيوافق علي قراره بالذهاب، ثم يتراجع السيد عن عزمه الذهاب إلى القصر ...وينتقل السيد إلى رأي آخر وهو أن يريد أن يتناول الطعام، فيوافقه العبد، ثم يتراجع السيد فيوافقه العبد أيضا .. ثم يقرر السيد المضي إلى الخلاء ويتراجع، وفي كل مرة يشيد العبد بما يقرره السيد .... ويقرر بعد ذلك تكوين أسرة، ثم يلغي الفكرة، فيرحب العبد بالفكرتين في كل مرة..

ويقرر بعد ذلك السيد أن يلتزم الصمت، فيوافقه العبد، وعندما يقول: لا لن أصمت يوافقه أيضا العبد....

وبعد هذا يقرر السيد أن يقوم بثورة فيوافقه العبد، ثم يتراجع كالعادة، فيسلم برأيه ويرى أنه الأصوب، فالثائر يمكن أن يتعرض للقتل والتعذيب -كما يقول العبد- داعما لرأي سيده ..

ويقرر السيد عشق امرأة، فيؤيده العبد، فالعاشق ينسى الحزن، ثم يتراجع السيد، فيلتزم العبد بأقوال سيده ويقول: أن المرأة هاوية ومصيدة ..

وهكذا ضاع الأمل في العشق والحب..

بعدها يقرر السيد أن يقدم قربانا للأله، فيوافقه العبد ويشيد بتوجهه .. ثم يتراجع السيد، فيصدق العبد على كلامه مبررا ذلك بقوله: على إلاهك أن يسير وراءك ويسعي سواء سألك أن تقدم له الطقوس أو طلب منك أن تؤدي له الفريضة أو أي شئ آخر ...

ويظل السيد على هذا الحال.... متقلب المزاج، والعبد يذهب معه في كل اتجاه...ويوافقه في كل رأي.

يقرر السيد، ثم يتراجع في كل مرة، وفي حالة أخذ القرار يوافقه العبد ويبرر الموافقة، وعندما يلغي قراره يوافقه أيضا، ويضع مبررات مخالفة للتي وضعها حال الموافقة ...

وبهذا وصل العبد إلى اليأس في أن يصل السيد إلى قرار لا تراجع فيه، لكن السؤال هو، هل أراد العبد أن يرضي سيده... أم أنه يسخر منه، ومن حضارة فقدت القدرة على الاختيار والإقدام، وهوت إلى العدمية ...هذا التساؤل في غاية الأهمية ... فلقد صور لنا حال المواطن عندما لا يكون لديه قدرة على اتخاذ القرار، بل الأحرى السيد أو المسئول، فيتابعه العبد فيما يرنو إليه، وهي حالة اللاإثبات واللا وعي ...

السيد يمثل النخبة المثقفة أو الحاكمة ...استوت لديه كل الأشياء في قيمتها وتفاهتها يتحمس لكل فكرة جديدة، ثم يلحق بغيرها من الرفض واللامبالاة... ويقفز السيد من انفعال إلى انفعال دون أن يصمم على فعل واحد، والعبد يتابعه لمجرد التبعية التي لا يملك غيرها ..

أيا كان الأمر فإن النهاية المحتومة لانعدام حرية الإرداة أمام انعدام كل القيم لابد أن تكون حتمية النهاية ولا يبقي مفر من اختيار الموت بعد أن عجز السيد عن الاختيار .وقد أظهر هذا النص نبضات حضارة يظهر فيها القهر والاضطهاد وظلم المواطنين مما يدفعهم إلى اليأس والتسليم وهذا النص الأدبي حمل روح عصره، والاستبداد القائم فيه من خلال الحوار..

وما بين سيد ضجر، متردد، متقلب، وعبده الذي تتركز عبوديته في الطاعة العمياء لنزوات سيده وتقلباته ... يبدو هنا معنى الاستبداد في أبلغ صوره من جانب السيد، والتبعية المطلقة من جانب العبد الذي لا حيلة له غير الخضوع، فهو السياسة التي اتبعها العبد دائما..

وفي المقطوعة الأخيرة يرى السيد أن الخير أن يدق عنقه، وعنق العبد وأن يلقي في البحر هو وعبده ... فيجيب العبد أنه لا أحد يدوم، لكن السيد يقرر قتل العبد أولا، فيجيب العبد في هدوء :(لن يحتمل سيدي العيش بعدي ثلاثة أيام).

هناك طابع درامي في هذا النص ... فهو يطرح مشكلة التشاؤم والاكتئاب في عصره .. ولكن كيف نوفق بين هذه التشائم، وبين روح المرح والسخرية .. هل يمكن أن يجتمع الحزن والدعابة ويمتزج اليأس بالسخرية، فالنسيج والاطار واحد .. أمر غريب ...

وإذا صح أن المضمون الأساسي للحوار هو بطلان القيم، وانتفاء الشروط اللازمة للحياة الخيرة الفاضلة، وشعور الإنسان بأن كل الأشياء، والأفعال لم تعد تستحق اهتمامه ... فإن هذا يبرر نغمة السخرية العالية، والسخرية جزء لا يتجزء من روح التشاؤم ...

أن المشكلة الكبري في الأدب العربي، والفكر البابلي: هي مشكلة العدل، وإذا كانت الآلهة التي تدير شئون الدولة تحكم بالعدل، فلماذا يتعذب الصالحون والأبرار؟... وإذا كان الفرد يمكنه استرداد حقه من المحكمة، فلماذا لا ينال من الآلهة جزاء تقواه وفضيلته وإخلاصه في أداء الشعائر وتقديم الأضاحي؟

لكن هل هذا النص فيه بارقة أمل على الرغم من تشاؤم المؤلف، أو السيد البابلي.... يفقد السيد الأمل في النهاية، فقد طرح أفكاره وقراراته مثل: تكوين أسرة - إنجاب الأطفال - التصدق على الفقراء -الخدمات العامة -الثورة، وغيرها من أفكار .....لكنه لم يجد في نفسه رغبة إلى ذلك ...

وفي الإشاره الأخيرة التي جاءت على لسان العبد من أن السيد لن يتمكن من العيش ثلاثة أيام بعد موت عبده تدعونا إلى التفكير العميق ...فهل لا يستطيع المستبد الحياة دون وجود المقهورين الذين يخضعون لأوامره ورغباته ..وقد رفض السيد من قبل ذلك فكرة التصديق علي الانتحار ربما بها بصيص من الأمل... قد يعاوده مرة أخرى، فربما ترك لنفسه الوقت لتجدد الآمال... ويطرح الدكتور عبد الغفار مكاوي:

إرشادات شوروباك:

شوروباك شخصية يكتنفها الغموض ويظهر في أحد الألواح التي نقشت عليها قائمة الملوك السومريين ... وكان شوروباك معلما وضع إرشادات لولده بها حكمة وموعظة للبشر.

على أن هذا النص كما وضح لنا الدكتور عبد الغفار مكاوي ملئ بالفجوات مما لا يعطي لنا المعني كاملا ..

نصائح حكيمة:

وهي مجموعه من المواعظ الأخلاقية، وهذا النوع من أدب الحكمة كان معروفًا ومنتشرًا الدليل على ذلك أن عددا من هذه النصائح يتردد في بعض شواهده التي تنتمي لعصور مختلفة، مثل إرشادات خاصة بتجنب رفاق السوء، وتجنب المشاجرات، ومهادنة الأعداء....

ويرجح أن يكون هذا النص قد تم تأليفه إلى عصر متأخر عن الدولة البابلية القديمة، حيث ساد في هذا العصر التدين العميق ...

نصائح متشائم:

وهي عبارة عن مقتطفات من عمل أدبي..... خطاب موجه لشخص معين أو للقارئ .. ومن العسير تحديد تاريخ هذه النصائح .. ويرى الدكتور عبد الغفار مكاوي: أن هذا النص لا يعني أن مؤلفه متشائم، لأن فكرة اللامتناهي أو الفناء التي طرحها لا تدل على التشاؤم، ولكنها تبصير الحكيم البابلي القديم بمأساة الوضع البشري بوجه عام، ويوصي الحكيم في النهاية إلى أن يعيش الإنسان حياة هادئة خالية من الهموم والقلق، ومن هذه النصائح:

اطرد الشقاء والعناد من جانبك

- اعتن بماشيتك، وتذكر زرعتك

نصح ونذير لأمير:

هذه نصائح كتبت على لوح وحيد وجد في مكتبات الملك أشور.... تصحح تلك الصورة التي لم تسلم من المبالغة، والتي أشاعت عن مؤرخين ملوك وادي لرافدين القدماء في صورة المستبد الشرقي الذي يرتب أهواءه، وينشط في طغيانه دون قيود .. وهذه النصائح تحذر ملكا، أو أمير بالكف عن ظلم رعاياه، وهذا تجسيد لفكرة الطغيان، وتنذره بالعقاب الإلهي وتحذر أيضا ضباطه، وعساكره حتي لا يرتكبوا الإثم في حق السكان الآمنين في المدن البابلية، وهي نصوص تهدف إلى حماية حقوق الإنسان وتنبيه الطاغية إلى فكرة سوء عاقبة الحكام الذين يستبدون في حكمهم، ويوظفون الحكم تبعا لأهوائهم.

أن هذا النص يعد إنذارا قويا للحكام الطغاه الذين يستبدون بالحكم، فعليهم بإنهاء ذلك الاستبداد وإلا تعرضوا لثورة الشعب، ومن قبلها غضب الآلهة، كما أن هذا النص ينبه أيضا العساكر، أو الأمن من الخضوع للحاكم في الجور على الشعب، لأنهم سينالون نفس العقاب....

ومن هذه النصائح:

- إذا تراخي ملك من إقامة العدل فسوف يلقي شعبه في الفوضي وتخرب بلده..
- إذا فرض غرامة على أهالي نيبور (نفر) أو بابل أو إذا وضعهم في السجن فسوف تدمر المدينة التي فرضت عليها الحراسة تدميرًا تامًا..
- تراتيل للآلهة..ترتيلة لنينورتا.

نقشت هذه الترتيلة للإله (نينورت) إله الري والسدود والقنوات باللغتين البابلية والأشورية ... النص به بعض الأوامر والتعليمات الأخلاقية ومن هذه التعليمات:

من ينشر الشائعات الحقيرة عن نظيره يرتكب ذنبا....

من يقتحم بشراسة حقل جاره يرتكب ذنبا .....

وهذه دعوة إلى احترام الحريات، والحرص على احترام الآخر ..

- ترتيلة للإله شمس.

هي ترتيلة موجهه إلى شمس الإله الذي كانت له مكانة كبيرة في وادي الرافدين تسبح هذه الترتيلة بحمد الإله شمس، والثناء عليه ثم تتحول إلى قضية العدل ومشكلاته .. فتدخل في صميم السياسة، فالظلم من صفات الطغاة، وكذلك عندما تتحدث عن أحوال الفقراء.. وتنتهي هذه الترتيلة بالدعاء للإله أن لا يصب لعنته على هؤلاء البائسين الفقراء (عامة الشعب)..

وهنا نعود إلى فكرة الاستبداد مرة أخرى والتي لم تبرح أي نص من هذه النصوص البابلية بشكل مباشر أو غير مباشر ...

أما في الجزء الأخير فيضع أستاذنا الدكتور عبد الغفار مكاوي مناظرات ...

وهي عبارة عن مناظرات وحكايات خرافية على لسان الحيوان والنبات

وهناك كثير من النصوص مفقودة ..

ومن هذه الحكايات:

حكاية نيسابا والغلة:

هي أعجب الحكايات البابلية على لسان النبات والحيوان.... يدور النص المتبقي منها حول نزاع غير مفهوم بين آلهة الغلة نيسابا، وبين نوع معين من الحبوب.. حديث القمح والحنطة التي تخاطب نيسابا بوصفها آلهة العالم السفلي، وتوجه إليها تهمة نشر الكراهية في كل ركن من أركان العالم، ولا يوضح النص سبب هذا الاتهام، وأن كانت علاقة آلهة الغلة، والعالم السفلي أوضح إذ أن النبات يستمد غذاؤه من أعماق الأرض.

ويستطيع القارئ أن يجد شاهدا على هذا من واحد من أهم نصوص الأدب البابلي (لامتدحن رب الحكمة)..

ومن أهم الحكايات التي طرحت:

حكاية الثعلب

تبدأ الحكاية بشكوى الثعلب للإله من الجفاف والقحط في الأرض، ويوجه الأسد عبارات التهديد، والأسد يمثل غضب الإله من التعدي على الحقوق خصوصا حقوق الملكية يشكو الثعلب للذئب من أنه قد ضلل به، وأكره على المشاركة في مهمة معينة ...

ويتضح هنا هدف الكاتب الرامي إلى إبراز المواقف السياسية المختلفة ودحض الاعتداء على حرية الآخرين، وعلى حقوق الإنسان ..

حكم وأقوال مأثورة:

هي عبارة عن أقوال تفوق أي إنتاج أدبي، وتكشف طبيعة البشر، وتلخص تجارب الشعوب، وتوضح رؤيتهم، واتجاهاتهم الفكرية والخلقية .. وهي خلاصة التجارب ومحصول الخبرة في سياق معين ومكان معين ...

ينطوي المثل على حقائق واقعية، ويبتعد عن الوهم والخيال .. ويتميز بالإيجاز وجمال البلاغة، ويحتوي المثل... على فلسفة ليست بالعميقة مصوغة بأسلوب شعبي يدركها الشعب بأسره ويرددها ... وشعوب سومر وبابل وآشور يمتلكون رصيدا من الحكم، والأمثال، والطرائف، والأقوال القيمة ..

ومن هذه الأقوال:

- لما أقترب من أبواب المدينة طاردته الكلاب.

ومن هذه الأمثال والحكم ما يتوفر فيها الإيجاز، والأمثال شديدة التنوع وبها بلاغة، وفيها حكايات وطرائف قصيرة ومقتطفات من نصوص أدبية وخرافات موجزة على لسان الحيوان..

وفي النهاية ألا يقتضي هذا منا أن نبحث في هذا الأدب البابلي عن معاني جديدة ربما لم يتعرض لها الآخرون من قبل ....

خاتمة

إن إرادتنا الرامية إلى صنع مستقبل أفضل مما عاشته البشرية من قبل يدعونا إلى دراسة هذه الفكرة المثيرة، والتي كانت سببا قويا لدحض الحريات وإقامة صروحا عالية من الطغيان والاستبداد .. فلنتجه إلى جذورها ونمر بتحولاتها عبر التاريخ لنصل إلى عصرنا الحالي، لنجد مادة خصبة جديرة بالدراسة، وقراءة الواقع ....

وكما يرى الدكتور عبد الغفار مكاوي ... أن الحرية والتغيير والتنوير لم تخل في بعض الأحيان من التشنج والعدوانية وإدانة الآخر ...

لقد تصارعت الحرية عبر التاريخ مع السلطة وبالتالي مع الاستبداد والقهر، وسوء الحكام يقوض تلك الفكرة الرائعة التي نحيا لها وبها ألا وهي الحرية ....

وهكذا درس عبد الغفار مكاوي الأدب الغربي، وألقى الأضواء على التيارات والمذاهب الأساسية في الأدب الغربي الحديث، وعلى أهم الأفكار السياسية التي عرضتها النصوص الأدبية. فالعمل الأدبي يمس السياسة حين يرصد الصراع الاجتماعي، ويعد هذا الصراع نافذة مفتوحة على مصراعيها بين النص الأدبي والفعل السياسي..

ومن خلال كتابات عبد الغفار مكاوي تعرفنا على كتابات كانط وهَيدجر، وعلى الديوان الشرقي لجوته، وشعر بودلير وهولدرلين، وأفكار نيتشه الفلسفية، وعلى مسرح برتولت بريخت، والمسرح التعبيري. وقد كان كتابه شديدُ الأهمية «ثورة الشعر الحديث»، الذي ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٧٠، واحدا من المراجع الأساسية للتعرف على الشعر الحديث في الغرب.